{إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} * {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا} * {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}(1–3)

قوله عزّ و جلّ: {إذا جاء نصر الله و الفتح} يعني فتح مكة و كانت قصة الفتح على ما ذكره محمد بن إسحاق، و أصحاب الأخبار " أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما صالح قريشًا عام الحديبية اصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشرين سنة، و قيل عشر سنين يأمن فيهن الناس، و يكف بعضهم عن بعض وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله عليه و سلم و عهده دخل فيه و من أحب أن يدخل في عقد قريش، و عهدهم دخل فيه. فدخلت بنو بكر في عهد قريش، و دخلت خزاعة في عهد النبي صلى الله عليه و سلم و كان بينهما شر قديم ثم إن بني بكر عدت على خزاعة، و هم على ماءلهم أسفل مكة يقال له الوتير، فخرج نوفل بن معاوية الدؤلي في بني الدئل من بني بكر حين بقيت خزاعة على الوتير، فأصابوا منهم رجلاً، و تحاوروا و اقتتلوا، و ردفت قريش بني بكر بالسلاح، و قاتل معهم من قريش من قاتل باللّيل مستخفيًا حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، و كان ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم بكر بن صفوان بن أمية، و عكرمة بن أبي جهل، و سهيل بن عمرو مع عبيدهم، فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر يا نوفل إنا قد دخلنا إلى إلهك فقال كلمة عظيمة إنه لا إله اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم، أفلا تصيبون ثأكم فيه قال: فلما تظاهر بنو بكر و قريش على خزاعة، و أصابوا منهم ما أصابوا و نقضوا ما كان بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه و سلم من العهد و الميثاق بما استحلوا من خزاعة، و كانوا في عقده خرج عمرو

بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة، و كان ذلك مما أهاج فتح مكة فوقف عليه و هو في المسجد جالس بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتمو ولداً وكنا والدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا و ادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا إن قريشاً أخلفوك الموعدا
و نقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رصدا
و زعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعاً وسجدا
فانصر هداك الله نصرًا أيدا

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **"قد نصرت يا عمرو بن سالم ثم عرض لرسول الله صلى الله عليه و سلم عنان من السماء، فقال إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب"**

، و هم رهط عمرو بن سالم، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة فأخبروه بما أصيب منهم، و بمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، و قد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قال للناس **"كأنكم بأبي سفيان قد جاء يشدد في العقد و يزيد في المدة"**، و مضى بديل بن ورقاء و أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول

الله صلى الله عليه و سلم يشدد في العقد و يزيد في المدة و قد رهبوا من الذي صنعوا، فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل و ظن أنه أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: سرت في خزاعة في هذا الساحل، و في بطن هذا الوادي قال: وهل أتيت محمدًا قال: لا فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان لئن كان جاء المدينة لقد علف منها النوى فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى فقال أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم طوته عنه فقال: أي بنية أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني فقالت بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم، وأنت رجل مشرك نجس لم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: و الله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب، فكلمه فقال أنا لا أشفع لك إلى النبي صلى الله عليه و سلم. فو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب، و عنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم وعندها الحسن بن علي غلاماً يدب بين يديها فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحمًا، و أقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد أرى عزم رسول الله صلى الله عليه و سلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة و قال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر.

فقالت: و الله ما بلغ بني أن يجير بين الناس، و ما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني قال و الله لا أعلم شيئًا يغني عنك، و لكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال: و ترى ذلك مغنياً عني شيئًا قال لا و الله ما أظن ذلك و لكن لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، فانطلق فلما قدم على قريش قالوا ما رواءك قال: جئت محمدًا فكلمته فو الله ما رد علي شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته ألين القوم و قد أشار عليّ بشيء صنعته فو الله ما أدري هل يغني ذلك شيئًا أم لا قالوا: و ما ذاك قال أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت قالوا فهل أجاز ذلك محمد قال لا قالوا ويلك والله ما زاد على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت قال لا و الله ما وجدت غير ذلك قال: و أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالجهاز و أمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة، و هي تصلح بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال أي بنية أمركم رسول الله صلى الله عليه و سلم أن تجهزوه، قالت نعم. قال فأين ترينه يريد قالت لا و الله ما أدري ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، و أمرهم بالجد و التهيؤ و قال اللّهم خذ العيون و الأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، فتجهز الناس و كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قد تقدمت قصته في تفسير سورة الممتحنة ثم مضى رسول الله صلى الله عليه و سلم لسفره، و استخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري

وخرج رسول الله صلى الله عليه و سلم عامدًا إلى مكة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة فصام النبي صلى الله عليه و سلم و صام الناس معه حتى إذا كان بالكديد بين عسفان، و أمج أفطر ثم مضى حتى نزل بمر الظّهران في عشرة آلاف من المسلمين. و لم يتخلف من الأنصار و المهاجرين عنه أحد فلما نزل بمر الظّهران، و قد عميت الأخبار عن قويش، و لا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لا يدرون ما هو فاعل خرج في تلك اللّيالي أبو سفيان بن حرب، و حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار و ينظرون هل يجدون خبرًا أو يسمعون به و قد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله صلى الله عليه و سلم ببعض الطريق قال ابن عشام: لقيه بالجحفة مهاجرًا بعياله، و قد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، و رسول الله صلى الله عليه و سلم عنه راض فلما نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم مر الظّهران قال العباس بن عبد المطلب ليلتئذ وا صباح قويش، و الله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه الهلاك لقويش إلى آخر الدهر.

قال فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه و سلم البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك لعلي أجد حاطباً، أو صاحب لبن أو ذا حاجة يدخل مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه و سلم ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة قال العباس: فو الله إني لأسير عليها و ألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان و بديل بن ورقاء، و هما يتراجعان، و أبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيراناً قط. فقال بديل هذه و الله نيران خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان خزاعة أذل و أقل من أن تكون هذه نيرانها، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة فعرف صوتي، فقال

يا أبا الفضل فقلت نعم قال ما لك فداك أبي وأمي قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين قال: و ما الحيلة قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه و سلم فأستأمنه لك فردفني، و رجع صاحباه فخرجت أركض به على بغلة رسول الله صلى الله عليه و سلم كلما مررت بنار من نيران المسلمين ينظرون إليّ، و يقولون عم رسول الله صلى الله عليه و سلم على بغلة رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال من هذا فقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة، قال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد، و لا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء قال فاقتحمت عن البغلة سريعًا، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم، و دخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد، ولا عهد فدعني أضرب عنقه قال فقلت يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخذت برأسه، و قلت و الله لا ينجيك الليلة أحد دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت مهلاً يا عمر.

فو الله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، و لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، فقال مهلاً يا عباس، فو الله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، و ما ذاك إلا لأني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم من إسلام الخطاب لو أسلم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به قال فذهبت به إلى

رحلي فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلما رآه قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله و أني رسول الله صلى الله عليه و سلم قال بأبي أنت و أمي ما أحلمك وأكرمك و أوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله، قال بأبي أنت و أمي ما أحلمك و أكرمك، و أوصلك أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً فقال العباس: ويحك أسلم و اشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك فتشهد شهادة الحق وأسلم قال العباس: فقلت يا رسول الله إن أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً قال **"نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، و من أغلق عليه بابه فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن"** فلما ذهب لينصرف قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **"يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله"** قال فخرجت به حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه و سلم أن أحبسه قال و مرت به القبائل على راياتها كلما مرت به قبيلة قال من هؤلاء يا عباس، فأقول سليم فيقول ما لي ولسليم، ثم القبيلة فيقول من هؤلاء، فأقول مزينة فيقول ما لي و لمزينة حتى نفدت القبائل. لا تمر قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته عنها. فيقول ما لي، و لبني فلان حتى مر رسول الله صلى الله عليه و سلم في كتيبته الخضراء، و إنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد، و ظهوره فيها و فيها المهاجرون و الأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم في المهاجرين، و الأنصار. قال ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، و الله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا قلت ويحك إنها النبوة، قال فنعم إذا فقلت الحق الآن بقومك فحذرهم، فخرج سريعًا حتى أتى مكة، فصرخ في المسجد بأعلى صوته يا

معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به قالوا فمه قال: قال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

قالوا ويحك، و ما تغني عنا دارك قال من دخل المسجد، فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد قال و جاء حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأسلما و بايعاه، فلما بايعاه بعثهما رسول الله صلى الله عليه و سلم بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام، و لما خرج حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء من عند رسول الله صلى الله عليه و سلم عامدين إلى مكة بعث في أثرهما الزبير وأعطاه رايته وأمره على خيل المهاجرين و الأنصار و أمره أن يركز رايته بأعلى مكة بالحجون، و قال لا تبرح حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك، ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجرًا بشقه عليه برد حبرة، و إن رسول الله صلى الله عليه و سلم ليضع رأسه تواضعًا لله عز و جل حين رأى ما أكرمه به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل، ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم دخل مكة و ضرب قبته بأعلى مكة، و أمر خالد بن الوليد، فيمن أسلم من قضاعة، و بني سليم أن يدخلوا من أسفل مكة و بها بنو بكر، و قد استنفرتهم قريش، و بنو الحارث بن عبد مناف و من كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، و أن صفوان بن أمية و عكرمة بن أبي جهل، و سهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسًا بالخندمة ليقاتلوا و قال النبي صلى الله عليه و سلم لخالد و الزبير حين بعثهما **"لا تقاتلا إلا من قاتلكما"**، و أمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كدى فقال سعد: حين توجه داخلاً اليوم يوم الملحمة اليوم يوم تستحل الحرمة فسمعها رجل من المهاجرين قيل: هو عمر بن الخطاب فقال:

لرسول الله صلى الله عليه و سلم اسمع ما قال سعد بن عبادة، و ما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال النبي صلى الله عليه و سلم لعلي بن أبي طالب أدركه بهذه الراية. فكن أنت الذي تدخن بها، فلم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال، و أما خالد بن الوليد، فقدم على قريش و بني بكر، و الأحابيش بأسفل مكة، فقاتلوه فهزمهم الله، و لم يكن بمكة قتال غير ذلك، و قتل من المشركين اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً، و لم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد و رجلان يقال لهما كرز بن جابر، و خنيس بن خالد بن الوليد شذا و سلكا طريقًا غير طريقه، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا نفرًا منهم سماهم أمر بقتلهم، و إن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإنما أمر بقتله لأنه كان قد أسلم فارتد مشركاً ففر إلى عثمان،وكان أخاه من الرضاعة فغيبه حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد أن اطمأن أهل مكة فاستأمنه له و عبد الله بن خطل رجل من بني تميم بن غالب، و إنما أمر بقتله لأنه كان مسلمًا فبعثه رسول الله صلى الله عليه و سلم مصدقًا، و كان له مولى يخدمه، و كان مسلمًا فنزل منزلاً و أمر المولى أن يذبح له تيسًا و يصنع له طعامًا و نام فاستيقظ، و لم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركًا، وكان له قينتان يغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه و سلم فأمر بقتلهما معه و الحويرث بن نقيد بن وهب، و كان ممن يؤذيه بمكة و مقيس صبابة، و إنما أمر بقتله لقتله الأنصاري الذي قتل أخاه خطأ، و رجوعه إلى قريش مرتدًا، و سارة مولاة لبني عبد المطلب، و كانت ممن يؤذيه بمكة، و عكرمة بن أبي جهل فأما عكرمة فهرب إلى اليمن، و أسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له رسول الله صلى الله عليه و سلم فأمنه فخرجت في طلبه حتى

أتت به رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أما عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن الحارث المخزومي و أبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه و أما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه و أما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما، و هربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله صلى الله عليه و سلم فأمنها و أما سارة فتغيبت حتى استؤمن لها رسول الله صلى الله عليه و سلم فعاشت حتى أوطأها رجل من الناس فرسًا له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها، و أما الحويرث ابن نقيد فقتله علي بن أبي طالب قالت أم هانىء: لما نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم بأعلى مكة فر إليَّ رجلين من أحمائي من بني مخزوم، و كانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي قالت: فدخل عليّ علي بن أبي طالب أخي فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة و إن فيها لأثر العجين، و فاطمة ابنته تستره بثوبه فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثمان ركعات الضحى، ثم انصرف إليّ فقال مرحبًا و أهلاً بأم هانىء ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين و خبر علي بن أبي طالب فقال: قد أجرنا من أجرت و أمنّا من أمنت فلا نقتلهما ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم خرج لما اطمأن الناس حتى جاء البيت فطاف به سبعًا على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، و أخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة، و قد استكف له الناس في المسجد فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهي تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت، و سقاية الحاج ألا قتل الخطأ شبه العمد بالسوط، و العصا، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها خلفة في بطونها أولادها.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، و تعظمها بالآباء، الناس من آدم و آدم من تراب، ثم تلا هذه الآية:

{يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى}

[الحجرات: 13] الآية ثم قال يا معشر قريش ما ترون إني فاعل فيكم، قالوا خيرًا أخ كريم و ابن أخ كريم قال فاذهبوا فأنتم الطلقاء، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه و سلم في المسجد، و كان الله أمكنه منهم عنوة فبذلك سموا أهل مكة الطلقاء، ثم جلس رسول الله صلى الله عليه و سلم فقام إليه علي بن أبي طالب و مفتاح الكعبة بيده فقال: يا رسول الله اجمع لنا بين الحجابة، و السقاية فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أين عثمان بن طلحة فدعي له فقال هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم وفاء و بر، قال و اجتمع الناس للبيعة فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم على الصفا، و عمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس. فبايعونه على السمع و الطاعة فيما استطاعوا، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قال عروة بن الزبير: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب الجمحي يا رسول الله إن صفوان بن أمية سيد قومي قد خرج هاربًا منك ليقذف بنفسه في البحر، فأمنه يا رسول الله، فقال هو آمن قال: يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه و سلم عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة، و هو يريد أن يركب البحر فقال يا صفوان فداك أبي و أمي أذكرك الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله صلى الله عليه و سلم جئتك به؟ فقال ويلك أغرب عني لا تكلمني قال: فداك أبي و أمي أفضل الناس، و أبر النّاس و أحلم الناس، و خير الناس ابن عمتك عزه عزك و شرفه شرفك، و ملكه ملكك، قال إني

أخافه على نفسي قال: هو أحلم من ذلك، و أكرم فرجع به معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك آمنتني قال صدق، قال فاجعلني في ذلك بالخيار شهرين قال: أنت بالخيار أربعة أشهر

" قال ابن هشام و بلغني أن النبي صلى الله عليه و سلم حين افتتح مكة، و دخلها قام على الصّفا يدعو، و قد أحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم أترون أن رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا فتح الله عليه مكة أرضه، و بلاده يقيم بها فلما فرغ من دعائه قال ماذا قلتم قالوا لا شيء يا رسول الله فلم يزل بهم حتى أخبروه.

فقال النّبي صلى الله عليه و سلم معاذ الله المحيا محياكم و الممات مماتكم" قال ابن إسحاق: و كان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف، و كان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان، و أقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة ثم خرج إلى هوازن و ثقيف، و قد نزلوا حنينًا (ق) عن أبي هريرة **"أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام الفتح بقتيل لهم في الجاهلية فقام رسول الله صلى الله عليه و سلم في الناس فحمد الله، و أثنى عليه و قال: إن الله حبس عن مكة الفيل، و سلط عليها رسوله و المؤمنين ألا و إنها لم تحل لأحد قبلي، و لا تحل لأحد من بعدي، ألا و إنما أحلت لي ساعة من نهار إلا، و إنها ساعتي هذه فلا ينفر صيدها و لا يختلى خلاها، و لا يقطع شوكها، و لا تحل ساقطتها لا لمنشد، و من قتل له قتيل، فهو بخير النظرين. إما أن يفتدي و إما أن يقيد فقال العباس: إلا الإذخر فإنا نجعله لقبورنا و بيوتنا، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا الإذخر، فقام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال اكتبوا لي يا**

رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: اكتبوا لأبي شاه قال الأوزاعي: يعني الخطبة التي سمعها من رسول الله صلى الله عليه و سلم".

(و أما التفسير)

فقوله تعالى: {إذا جاء نصر الله} يعني إذا جاءك يا محمد نصر الله، و معونته على من عاداك و هم قريش.

و معنى مجيء النصر أن جميع الأمور مرتبطة بأوقاتها يستحيل تقدمها عن وقتها أو تأخرها عنه فإذا جاء ذلك الوقت المعين حضر معه ذلك الأمر المقدر، فلهذا المعنى قال {إذا جاء نصر الله و الفتح} يعني فتح مكة في قول جمهور المفسرين، و قيل هو جنس نصر الله المؤمنين و فتح بلاد الشرك عليهم على الإطلاق، و الفرق بين النصر و الفتح. أن النصر هو الإعانة و الإظهار على الأعداء و هو تحصيل المطلوب، و هو كالسبب للفتح.

فلهذا بدأ بذكر النصر و عطف عليه الفتح، و قيل النصر هو إكمال الدين و إظهاره، و الفتح هو الإقبال الذي هو تمام النعمة. {و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا} يعني زمرًا و أرسالاً القبيلة بأسرها. و القوم بأجمعهم من غير قتال قال الحسن: لما فتح الله على رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة قالت العرب بعضها لبعض إذا ظفر الله محمد بأهل الحرم، و كان قد أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجًا. بعد أن كانوا يدخلون واحدًا واحدًا و اثنين اثنين. و قيل أراد بالناس أهل اليمن (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال **"أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبًا، و أرق أفئدة الإيمان يمان، و الحكمة**

يمانية و دين الله هو الإسلام" و أضافه إليه تشريفًا و تعظيمًا، كبيت الله و ناقة الله قوله {فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان توابًا} يعني فإنك حينئذ لاحق به (ق) عن ابن عباس: قال كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال: بعضهم لم يدخل هذا الفتى معنا، و لنا أبناء مثله فقال إنه ممن قد علمتم قال فدعاهم ذات يوم و دعاني معهم.

قال و ما رأيت أنه كان دعاني يومئذ إلا ليريهم مني.

قال ما تقولون في قول الله تعالى: {إذا جاء نصر الله و الفتح} حى ختم السورة، فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله، و نستغفره إذ نصرنا، و فتح علينا، و سكن بعضهم فلم يقل شيئًا فقال لي أكذلك تقول يا ابن عباس، قال: قلت؛ لا قال فما هو قلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلمه، فقال {إذا جاء نصر الله و الفتح}، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان توابًا، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم (ق) عن عائشة قالت: **"ما صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم صلاة بعد أن أنزلت عليه إذا جاء نصر الله و الفتح، إلا يقول فيها سبحانك ربنا و بحمدك اللهم اغفر لي، و في رواية قالت: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر أن يقول في ركوعه و سجوده سبحانك اللهم و بحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن، و في رواية قالت كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر القول من سبحان الله، و بحمده أستغفر الله و أتوب إليه، و قال أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي. فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله و بحمده و أستغفر الله و أتوب إليه قد رأيتها إذا جاء نصر الله و الفتح فتح مكة، و رأيت الناس يدخلون في دين**

الله أفواجًا فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان توابًا" قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة علم النبي صلى الله عليه و سلم أنه نعيت إليه نفسه.

و قال الحسن: أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح و التوبة، ليختم بالزيادة في العمل الصالح قيل عاش النبي صلى الله عليه و سلم بعد نزول هذه السورة سنتين، و قيل في معنى السورة إذا جاء نصر الله و الفتح و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فاشتغل أنت بالتسبيح و التحميد، و الاستغفار، فالاشتغال بهذه الطاعة يصير سببًا لمزيد درجاتك في الدنيا و الآخرة.

و في معنى التسبيح وجهان: أحدهما نزه ربك عما لا يليق بجلاله ثم احمده.

و الثاني فصل لربك لأن التسبيح جزء من أجزاء الصلاة، ثم قيل عني به صلاة الشكر، و هو ما صلاه رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة ثمانركعات.

و قيل هي صلاة الضحى. و في الآية دليل على فضيلة التسبيح، و التحميد حيث جعل ذلك كافيًا في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر و الفتح.

فإن قلت ما معنى هذا الاستغفار، و قد غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

قلت إنه تعبد الله بذلك ليقتدي به غيره. إذ لا يأمن كل واحد من نقص يقع في عبادته و اجتهاده ففيه تنبيه على أن النبي صلى الله عليه و سلم مع عصمته وشدة اجتهاده ما كان يستغني عن الاستغفار فكيف بمن هو دونه و قيل هو ترك الأفضل و الأولى لا عن ذنب صدر منه صلى الله عليه و سلم و على قول من جوز الصغائر على الأنبياء يكون المعنى، و استغفره لما عسى أن يكون قد وقع من تلك الأمور منه،

و قيل المراد منه الاستغفار لذنوب أمته، و هذا ظاهر لأن الله تعالى أمره بذلك في قوله **{و استغفر لذنبك، و للمؤمنين، و المؤمنات}**
[محمد: 19] و الله سبحانه و تعالى أعلم.